قصة مصرية :

الشيخ علوان فقيه القرية

بقلم الأستاذ محمد الهياوى

الشيخ علوان فقيه القرية ، جمعت له الحياة طرفى قرنين من الزمن ، فادرك فى مطالع شبابه خواتم القرن الماضى ، واكتملت رجولته فى صبائح هذا القرن ، وكان على العهدين مرجع أهل القرية فيما يلتبس عليهم من شئون الآخرة والأولى .

ولما لم يكن لمسجد القرية الصغير إمام عالم ، فقد كان الشيخ علوان يتطوع وينصب نفسه إماما فيؤم الصلوات ويخطب فى الجمع والأعياد ، وكان فى مجلسه بين الغادين والرائحين ملهم الآراء وموجه العزائم ، وكان قاضى الخصومات ومفتى الأحكام ، وكانت إليه تنتهى الكلمة الفاصلة فيما أحل الله وما حرم ، فلم تكن مسألة تخفى على أحد إلا فزع اليه يسأله أن يجليها فما هى إلا أن يبرح الخفاء وتذهب الغماء .

وما كان الشيخ علوان يمسك عن سائل جوابه ، ولا يكتم عن مستطلع نبأه ، ولم يقل قط فى شىء : لست أدريه ، ولم يؤخر إلى علم غده جواب ما جهل فى يومه ، فهو يعلم أنه بين أهل القرية تحفة غير معادة وفاكهة غير مكررة ، وهو لا يخشى أن تفضحه براءة الصواب مما يقول وخصومة الحق لما يفعل ، وهو لا يخاف أن يجهله أحد لأنه من ثقة أهل القرية به فى حصن من تجهيل المجهلين وتصويب المصوبين ، بل لو أن عابرا من أهل البصيرة فى العلم همس فى أذنه أن العلم غير ما أفتى والهدى خلاف ما قال لكان حسبه من النجاة بنفسه أن يمنحه الشيخ فضل الاعراض عنه قبل أن يسمع أهل القرية أنه أساء الأدب مع شيخهم الطعطام .

وكانت للشيخ طريقته التقليدية المأثورة ، كل شىء مردود إلى تعاويذه ورقاه ، فالشر والخير كلاهما طوع التميمة يصنعها لتذهب الأسقام وتصح الاجسام ، والجرعة يسقيها لتجمع المحبين وتقطع ألسنة اللائمين ، والرقية يدير بها يده ليبرأ المحسود ويعيش المولود ، والورقة يكتبها ليظاهر المسروق وينقطع حبل المشنقة قبل أن يهوى العزيز المشنوق .

أما متلفات العافية والمال وموبقات البدع والخرافات ، فقد شاع فى أهل القرية عن تحديث الشيخ أن بعضها داء وبعضها دواء ، فلكل مصيبة فى المال دواءها من خرافة يعلمها ، ولكل بلية فى النفس شفاؤها من بدعة يحتفظ بها ، وبعد ذلك فمدافعتها بشىء من حزم التدبير وطب المستشفى اعتراض على الله فيما يجرى به قضاؤه وقدره ! . .

ومع ذلك كان الشيخ علوان رجلا ظاهر الصلاح والتقوى ! . . أليست التقوى أن يتوضأ فيسبغ وضوءه ثم لا ينظر بعد ذلك إلى أن الوضوء نظافة وأن النظافة من الإيمان وأنها إنما كانت من الإيمان لأن فيها طب الأجسام وجلاء القلوب ؟ . . أليس الصلاح أن يصلى فلا تفوته فريضة ولا نافلة ثم لا يعنيه أن تكون الصلاة رياضة الأبدان والأرواح ونور الأفئدة والنفوس ، والقيام بين يدى الله على أكمل ما يتجمل به عباده من استواء الأعضاء وبهاء الطلعات ونضرة الوجوه واشراق الجباه ؟ . .

لا ، ولكن هذه المعانى كلها لا تتصل عند الشيخ بعبادة الله حق عبادته ، فهى بعض متعلقات الدنيا ، وهذه الدنيا ومعها جميع متعلقاتها ، كلهن حرام على عباد الله المخلصين ، حتى إذا جاءت تجرى وراء الرقا والتمائم أصبحت فى يد الشيخ وبطنه حلالا طيبا مباركا فيه .

وفيما كان شيخنا علوان مطمئنا إلى سلطانه على العقول والأفئدة كان قدر الله قد انتهى إلى غايته ليرى آية الله فى نفسه .

ففيما كان فى إحدى لياليه الضاحكة غارقا من لهفات المتبركين وأصحاب الحاجات فى عزة التوقير وجلال المهابة ، كان فى الطرف الآخر من القرية شاب ينطبق على نفسه ولهاً وحزنا كلما انطبق عليه ظلام داره بؤسا ووحشة ، وكانت بين يدى الشاب زوجة قنع بها من دنياه منذ تهيأت له السعادة إلى جانبها ، وكانت هذه الزوجة نفساء من وضع وليدهما البكر ، ولم تكن فى صباح نهارها تشكو شيئا من الوجع غير قليل من الخدر والتكسر يسبح فى جسمها سبحان الماء ، وكانت تلك طرقات الحمى تؤذن بقدومها ، فلم يزح الليل حجابه على ضوء النهار حتى كانت الحمى قد أرخت حجابها على ضوء عينيها فغاب ادراكها وراء هذه الغمة الطارئة كما تغيب الشمس وراء ظلمة الليل .

كان زوجها الشاب يكد نهاره فى غيط العمدة ، فلما أمسى عاد الى داره وأحلى أمانيه أن يستقبله من فاطمة ثغرها الضاحك وكلمتها التى اعتادت أن تسبقه اليها دائما : مساء الخير يا على ، ولكنه فى هذا المساء كان عجلان مسرعا وهو لا يدرى لماذا هو عجلان مسرع ، وكان يطوى عديد الخطوات فى خطوة واحدة ليقرب بعد الطريق وهو لا يعلم لماذا يريد أن يقرب بعد طريقه ، وكان يتمنى لو استطاع أن يوجز الزمن بعضه فى بعض ليتقاصر طوله وهو

لا يعرف لماذا يتمنى أن تكون له هذه الاستطاعة ، وكان يجد فى صدره هما لا يعرف سببه ويحس فى نفسه لهفة المشتاق الخائف لا لهفة المشتاق على أمن واطمئنان .

وارتاع الشاب حين شارف داره فلم يرتفع أمام عينيه بصيص سراجها ، هل غابت فاطمة عن الدار فسراجها غير مضىء؟هل أخذتها نومة الأصيل فأقبل الليل قبل أن تستيقظ فتضىء السراج ؟ وحاول أن يقنع نفسه انها نائمة على صحة وعافية إذ لم تكن تغيب عن دارها فى الساعة التى ترتقب فيها عودة زوجها المحبوب ، ولكنه فزع مرتاع ، يلفه الشك والتجوس فى بردتين من رجاء وخوف ،ثم وجد نفسه فى مدخل الدار فوقف يتسمع حس الدار و يتشمم عطر ريحانة الدار ، ولما لم يظفر من السكون المطبق بما يسعف أذنه وقلبه استخاص لسانه من عقلة الفزع وناداها : يا فاطمة ، يا فاطمة ، غير أن فاطمة أخلفت عادتها فلم تجبه .

وكان يعرف مكان السراج فاضاءه ،وتكسرت سلوك الضوء الخافت على الجدران القاتمة فظهرت فاطمة كالنقطة المبهمة فى الأفق السحيق ، وأشرق فى ضميمة صدرها وجه الطفل الوليد كالدرهم اللامع فوق القطيفة السوداء ، وعاود المسكين نداءفاطمة فأجابه أنين عميق منقطع ، ومر بيده على جبينها فلذعته من وقدة الحمى جمرة حامية ، ثم لم يكن بعد ذلك شىء غير أن استغرقتها الغيبوبة فحجبت أنسها عنه ،واستغرقه الحزن فتحطم احتماله فوافضت مدامعه .

ولكن هذا المسكين كيف يصنع وممن يطلب العون ؟ ليس لمثل هذه النازلة غير العم الشيخ علوان . . .

وكان الشيخ علوان لا يزال من صدر المجلس الحاشد فى جلال المهابة وعزة التوقير حينما جاء " على " يتخطى الرءوس كأنه يقفز الحواجز العالية فى رهان المواثبة ، فلما استقر بين يدى الشيخ صاح : ادركنى ياعم الشيخ ، ساعدنى ياسيدى الشيخ ، وأكب على رجل الشيخ فغسلها بدموعه ، وبعد أن استفاق الشيخ من نشوة الوقار ومتعة التحفظ ،قال : ما شأنك ياولدى ؟ لماذا تبكى وأى شر أصابك ؟ ولم يزد المستغيث الباكى على أن قال : زوجتى ياعم الشيخ ، زوجتى مريضة ، ناديتها فلم تتكلم ، وأنهضتها فلم تنهض ،ووضعت يدى على جبينها فوجدته أحمى من النار ، ادركنى يا عم الشيخ ، وحياة العلم اللى على قلبك ادركنى . .

وخف الشيخ مع على الى داره ليرى زوجته المريضة ،وكانت المسكينة قد عاودتها صحوة من صحوات الحمى ، فشكت فى الرحم وجعا لا تطيقه ، ولم تكن تتم للشيخ احاطته بعلم الأشياء كلها إذا هو انصرف قبل أن يضمن بالدواء الذى يصفه زوال هذا الوجع ، ولم يبطئ بوصف الدواء فقال : هاتوا بصلة كبيرة فدقوها مع ملح وكمون ، وأمر فارسلوا فى طلب

" داية القرية " فلما حضرت أمرها أن تضع هذه البصلة فى رحم المريضة ، ولم ينس وهو منصرف أن يبشر عليا بشفاء زوجته بعد أن أوصاه ألا ينسى هو ايضا حلاوة السلامة .

لم يكد الدواء يستقر فى مكانه حتى جعل الدم ينزف كأنما يتدفق من ينابيع متفجرة ، وعند انتصاف الليل انقطع الانين وتهافتت دقات القلب و برقت العينان ، وعند انبثاق الفجر انطلق الطائر من حبسه ، وغشيت الدار رهبة الموت .

كان ذلك يوم ثلاثاء ، فلما كان يوم الثلاثاء الذى يليه التمست القرية شيخها العزيز فلم تجده ، وافتقدت من زين شبابها عليا وفاطمة فلم تظفر بهما : فاطمة بين أهل القبور ، وعلى فى مستشفى المجاذيب ، والشيخ علوان سجين ينتظر حكم القضاء ما

محمد الهمياوى